القتل أنفى للقتل

ليست جاهليَّةً

وبعد كلمتنا تلك عن التَّرجمة نشر أديبٌ في البلاغ : أنَّ الكلمة جاهليَّةٌ ، فتعقَّبناه بهذا التَّعليق :

أثبت الأستاذ عبد العزيز الأزهريُّ فيما نشره البلاغ : أنَّ هذه الكلمة عربيَّةٌ في دعواه ، واحتجَّ لذلك بحجج ، أقواها زعمُه « أنَّها وردت بين ثنايا عهد القضاء ؛ الَّذي بعث به سيِّدنا عمر إلى أبي موسى الأشعريِّ ، ولا ندري أين وجد الكاتب كلمة « القتل » فضلاً عن « القتل أنفى للقتل » ـ في ذلك العهد المشهور المحفوظ ، رواه الجاحظ في (البيان ، والتَّبيين)، وجاء به المبرِّد في الكامل ، ونقله ابن قتيبة في عيون الأخبار ، وأورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ، وساقه القاضي الباقلانيُّ في الإعجاز ؛ وفي كلِّ هذه الرِّوايات الموثَّقة لم تأتِ الكلمة في قول عمر ، بل لا محلَّ لها في سياقه ، وإنَّما جاء قوله : « فإن أحضر بيِّنةً ؛ أخذت له بحقِّه ، وإلا وجهت عليه القضاء ؛ فإنَّ ذلك أنفى للشَّكِّ » .

أمَّا سائر حجج الكاتب ؛ فلا وزن لها في باب الرِّواية التَّاريخيَّة ،وقد أصبح عاليها سافلها ، كما رأيت .

والَّذي أنا واثقٌ منه : أنَّ الكلمة لم تعرف في العربيَّة إلى أواخر القرن الثَّالث من الهجرة ، وهذا الإمام الجاحظ يقول في موضعٍ من كتابه (البيان والتَّبيين) في شرح قول عليٍّ كرَّم الله وجهه : « بقيَّة السَّيف أنمَى عدداً ، وأكثر ولداً » ما نصُّه : ووجد النَّاس ذلك بالعيان للَّذي صار إليه ولده من نهك السَّيف ، وكثرة الذرء ، وكرم النَّجل ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي الْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٧٩] وقال بعض الحكماء : قتل البعض إحياءٌ للجميع .

ولم يرد الجاحظ على هذا ، ولو كانت الكلمة معروفةً يومئذٍ ؛ لما فاتته ، كما هو صنيعه في كتبه[١] ، خصوصاً ، وهي أوجز ، وأعذب ممَّا نسبه لبعض

---

(١) أورد الجاحظُ الآية الكريمة في الجزء الثاني من كتابه « الحيوان » صفحة (٣١) ثمَّ قال : إلى هذا المعنى رجع قول الحكيم الأول : قتلُ البعض إحياءٌ للجميع . وهذا إلى=

الحكماء ؛ وهذه العبارة الأخيرة (قتل البعض . . .) هي الَّتي زعم الرَّازي في تفسيره : أنَّها للعرب . . . فلا عبرة في هذا الباب بكلام المفسِّرين ، ولا المتأخِّرين من علماء البلاغة ، وإنَّما الشَّأن للتَّحقيق التَّاريخيِّ .

ونصَّ الجاحظ في كتاب « حجج النُّبوَّة » على أنَّ قوماً منهم ابن أبي العوجاء ، وإسحاق بن طالوت ، والنُّعمان بن المنذر « وأشباههم من الأرجاس الَّذين استبدلوا بالعزِّ ذلاًّ ، وبالإيمان كفراً ، وبالسَّعادة شقوةً ، وبالحجَّة شبهةً ، كانوا يصنعون الآثار ، ويولِّدون الأخبار ، ويبثُّونها في الأنصار ، ويطعنون بها على القرآن » ؛ فهذا عندنا مِنْ ذاك .

وإن لم ينهض الدَّليل القاطع على أنَّ الكلمة مترجمةٌ عن الفارسيَّة بظهور أصلها في تلك اللُّغة ، ورجوعه إلى ما قبل الإسلام ، فهي ولا ريب ممَّا وضع على طريقة ابن الرَّاوندي الزِّنديق الملحد ؛ الَّذي كان في منتصف القرن الثَّالث ، وألَّف في الطَّعن على القرآن ، وقال في كتابه : « الزُّمرُّدة » : إنَّا نجد في كلام أكثم بن صيفي شيئاً أحسن من : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ [الكوثر : ١] . فكأنَّ واضع الكلمة يقول على هذه الطَّريقة : « إنَّا نجد في كلام العرب شيئاً أبلغ من : ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ ﴾ [البقرة : ١٧٩] » .

وهؤلاء المتطرِّفون على القرآن الكريم إنَّما يريدون بما يصنعونه من مثل هذه الكلمة أن يوجدوا للعامَّة ، وأشباههم من الأحداث ، والأغرار ، وأهل الزَّيغ ، والضُّعفاء في العلم ؛ سبيلاً إلى القول في نقض الإعجاز ، ومساغاً إلى التُّهمة ، في أنَّ القرآن تنزيل ؛ والخطأ في مثل هذا يتجاوز معنى الخطأ في البيان إلى معنى الكفر في الدِّين ، وذلك ما يرمون إليه ؛ وهذه بعينها هي طريقة المبشِّرين اليوم ؛ فكأنَّ إبليس من عهد أولئك الزَّنادقة إلى عهد المبشِّرين لم يستطع أن يتغيَّر ؛ ولا أن يكون . . . أن يكون مجدِّداً .

* * *

تمَّ الجزء الثَّالث من : وحي القلم ، وبه تمَّ الكتاب

* * *

= ما تقدَّم هو نصٌّ على أنَّ الجاحظ لم يسمع هذه الكلمة ، ولم يعرفها ، وقد توفي الجاحظُ سنة (٢٥٥) للهجرة ، وألَّف كتابه « الحيوان » في آخر عمره ، وهو مفلوجٌ ، فلم تكن الكلمةُ معروفةً إلى ذلك العهد ، لا في الرِّواية ، ولا في التَّرجمة ، مع انتهاء زمن الرِّواية ، واستبحار التَّرجمة عن الفارسيَّة . (ع) .